من تراب الطريق (٤٧٩)

القنبرة والفيل: (*) لا يأس مع العقل والحيلة!

يروى على بن الشاه الفارسى ، فى مقدمته لأسباب كتابه : «كليلة ودمنة» ، أن الإسكندر ذا القرنين ، كان قد ترك على بلاد الهند رجلا من شيعته ، فلما جعل يستهين بأمرهم ، تألبوا عليه ، وأجمعوا أن يملكوا عليهم رجلا من أولاد ملوكهم هو دبشليم الملك . ولكنه لما استقر به الملك ، واستوثق له الأمر ، طغى وتجبر ، وجعل يغزو من حوله ، حتى هابه الملوك من حوله ، والرعية فى بلده .

فلما رأى الفيلسوف بيدبا ، وكان حكيما فاضلا من البراهمة ، ما عليه الملك دبشليم من ظلم للرعية ، فكر فى حيلة يصرفه بها عنهم ، فجمع لذلك تلامذته ، وجعل يستعرض معهم سبل مقاومته ويستبعدها واحدًا وراء آخر ، لعلل وأسباب أبداها ، ثم طفق يرشدهم بعد حديث طويل أنه لا سبيل لمقاومة هذا الظالم المتجبر ، إلاَّ بالترويض والحيلة . ولكن كيف ؟ طفق بيدبا يروى لتلاميذه حكاية القنبرة (عصفور مخروطى المنقار) مع الفيل . فقد اتخذت لها عشا وباضت فيه ، فوطئه الفيل وهو فى طريقه إلى مورد الماء ، فلما رأت القنبرة بيضها مهشما ، طارت حتى وقعت على رأس الفيل باكيةً ، وقالت له : أيها الملك ، لم هشمت بيضى وقتلت أفراخى ؟ أفعلت ذلك استضعافًا لى واحتقارًا لأمرى ؟ فقال : هو الذى حملنى على ذلك . فتركته القنبرة مكسورة الخاطر ، وذهبت تشكو إلى جماعةٍ من الطيور ما نالها من الفيل . فقلن : وما

(*) المال ٢٤/ ٨/ ٢٠١٠ .

عسى أن نبلغ منه ونحن طير ضعاف ؟! فقالت القنبرة للغربان والعقائق (جمع عقعق وهو طائر صَخَّاب من الفصيلة الغرابية) : أحب منكن أن تنصرفن معى إلى الفيل فتفقأن عينيه ، فإنى بعد ذلك أحتال عليه بحيلة أخرى . فأجبنها إلى ما طلبت ، ومضين إلى الفيل فلم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما ، وقعد الفيل عاجزا عن أن يهتدى إلى طريق طعامه ومشربه إلاَّ ما يصادفه فى موضعه . .

فلما عرفت القنبرة ما أحاط به ، طارت إلى غدير فيه ضفادع كثيرة ، فشكت إليهن ما نالها من الفيل فقلن لها : ما حيلتنا نحن أمام عظمة الفيل وأنَّى نبلغ منه ؟! قالت لهن القنبرة : أريد أن توافين معى إلى موضع «حفرة» كبيرة بالقرب منه ، فتنقنقن وتحدثن صخبا وضجيجا ، فإذا سمع أصواتكن ظن أنه الماء فيهوى فيها . فأجابتها الضفادع إلى ذلك ، واجتمعن فى الحفرة الكبيرة ، وجعلن ينقنقن ويصخبن فسمعهن الفيل وقد أجهده العطش ، فأقبل حتى وقع فى الحفرة وارتطم فى قاعها. هنالك جاءته القنبرة ، وجعلت ترفرف على رأسه وتقول له : أيها الطاغى المغتر بقوتك المحتقر لأمرى ، كيف رأيت عظيم حيلتى فى صغر حجمى عند عظيم جثتك وصغر همتك .

روى بيدبا قصة القنبرة لتلاميذه ، وطلب إليهم أن يشيروا بما يسنح لكل منهم من رأى ، فقالوا له : أيها الفيلسوف الفاضل الحكيم العادل ، أنت المقدم فينا المفضل علينا ، فما عسى أن يكون رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك ؟!

شكر بيدبا لتلاميذه أنهم قالوا فأحسنوا ، وصرفهم ليذهب هو إلى الملك دبشليم ، فلما مثل بين يديه ، وطال حديث الملك قبل أن يسأله عن حاجته

ويأذن له فى الحديث ، طفق بيدبا يقول له إنه وجد الأمور التى يختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان ـ أربعة ، وفيها جماع كل ما فى العالم ، وهى الحكمة والعفة والعقل والعدل ، ولكل منها عناصر ، وأضدادها هى المساوئ .

طال الكلام بين بيدبا الفيلسوف ودبشليم الملك ، وهو ملىء بالحكم والعظات والعبر ، وقد أعود إليه يوما ، ولكن ما يعنينى الآن هو حكاية القنبرة والفيل ، وكيف استطاعت القنبرة على قلة حجمها وضعف بنيانها ، أن تهزم الفيل على ضخامة جسمه ، ومتانة بنيانه .

لم تيأس القنبرة أو تخلد إلى الاستسلام ، وهى حكاية من حكايات كثيرة دسها بيدبا الفيلسوف فى تضاعيف عمله الذى هو لهو وتسلية فى ظاهره ، وبحث فى دهاليز الحكمة فى باطنه ، حتى قال بيدبا فى بعض حكاويه ، مفصحا عما يداريه : «وقد ينبغى للناظر فى كتابنا ألا يجعل غايته التصفح لتزاويقه ، بل ليشرف على ما تضمن من الأمثال حتى يأتى على آخره ويقف عند كل مثل وكلمة ويعمل فيها رويته ».

حكاية القنبرة والفيل ، حكاية صالحة للأفراد والمجاميع ، وللشعوب والدول ، وللحكام والمحكومين . ليس نادرا ، بل هو حال الدنيا ، أن القوة بكل صورها وأشكالها ماضية فى طريقها ، يتسلح بها الحكام وأصحاب السلطان ، وتتقوى بها الحكومات ، ويجمع أسبابها كل صاحب غرض يريد أن يأخذ من الدنيا أكثر مما يستحقه ، ويتغول من أجل ذلك على ما ليس له .

وسواد الناس لا سبيل لهم لحيازة هذه القوة التى تقهرهم بها الحكومات والحكام ، وأصحاب الجاه ، والسلطان والثروات ، ولكن الحيلة بنت من يبحث عنها وينشدها ، تدين للعقل ، والعقل منحة قد لا تصادفها القوة

المغترة بنفسها ، فتفقد الفطنة وتعوزها البصيرة فيأتيها ما لا تحب من حيث لا تدرى ولا تحتسب !

حيلة القنبرة لم تعوزها الإرادة والعزيمة ، ولم تترك التدبير.. ظنى أن حكايتها ترسم طريق الخلاص للمقهورين المغلوبين على أمرهم ، أفرادًا وشعوبا ، وتقدم المثل الحىّ على أن الإصرار لا تعوزه الحيلة ما دام يمتلك العقل والإرادة وقوة العزيمة !

*****